ذو القرنين
بين
الخبر القرآني
والواقع
التاريخي

بقلم : عبدالله بن ابراهيم العسكر

« الحلقة الثانية »

في العدد الماضي ، كنا قد ارجانا بحث المجموعة الثانية ، والمتعلقة براي تسعة كتاب في شخصية ذي القرنين ، وانهم يرون انه الاسكندر المقدوني ، وكان ابن هشام اول من اعتنق هذا الراي ولقد انكر عليه ذلك ورده الحافظ ابو القاسم السهيلي (١) . اما المسعودي فاكد راي ابن هشام ، واستدل برسالة محفورة على باب الاسكندرية ـ المعروف ان بانيها الاسكندر المقدوني ـ جاء فيها « ... اردت ان ابنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور ، فلم ير الباري عز وجل ملك السموات والارض ومفني الأمم ان ابنها كذلك . فبنيتها واحكمت بنيانها ، وشيدت سورها ، واتاني الله من كل شيء علما وحكما وسهل لي الاسباب ، فلم يتعذر علي شيء في العالم اردته ولا امتنع شيء مما طلبته ، لطفا من الله عز وجل وصلاحا لي ولعباده من اهل عصري ، والحمد لله رب العالمين لا اله الا الله رب كل شيء » (٢) . اما المراغي فقد استدل على كونه الاسكندر المقدوني من ان التاريخ لم يعرف فاتحا يطابق اخبار ذي القرنين كالاسكندر (٣) . واشد المتحمسين من المفسرين في هذا المضمار القاسمي .

وأنقل هنا بالنص محاولته لاثبات أن ذا القرنين هو الاسكندر يقول في كتابه (محاسن التأويل) : (·· لقد أصبح ذلك من الأوليات ـ أي انه الاسكندر المقدوني ـ عند علماء الجغرافيا وأما دعوى انه كان مشركا يعبد الاصنام ، وان قومه وثنيين وانه تلميذ أرسطو · فقد جاء في ترجمته ـ كما في طبقات الأمم وغيرها ـ انه كان لا يعظم الاصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت وانه بسبب ذلك نسب الى الكفر ، وأريد السعاية به الى الملك ، فلما أحس بذلك شخص عن أثينا ، لأنه كره أن يبتلي أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراط معلم أفلاطون فانه كان من عبادهم ومتألهيهم ، وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الاصنام وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها ، فثوروا عليه العامة ، واضطروا الملك الى سجنه ، ليكفهم عنه، ثم لم يرض المشركون الا بقتله فسقاه السم خوفا من شرهم ، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم ، فالوثنية وان كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، الا انه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه ، وهكذا كان الاسكندر وأستاذه والحكماء قبله ، فان الممعن في تراجمهم يرى انهم على توحيد وايمان بالمعاد · قال القاضي صاعد : كان فيثاغورس ـ أستاذ سقراط ـ يقول ببقاء النفس ، وكونها فيما بعد في ثواب وعقاب على رأي الحكماء الالهيين) (٤) ·

ولقد تابع القاسمي كلامه ، ثم أخذ في رد قول بعضهم ، ان في كون الاسكندر المقدوني هو ذي القرنين ، اشكالا قويا ، وهو انه كان تلميذ أرسطو الحكيم وكان على مذهبه ، فتعظيم الله اياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل اليه ويوجب الوقوف عنده ، فان القاسمي رد بقوله « ··· فان من كان تابعا لمذهب فمدح لأمر ما يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه ، اذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد في متبوعه ، وقد يبدو له من الانظار الصحيحة فلا يكون في مذهبه الذي نشأ عليه مقلدا · أفلا يمكن أن يكون حرا في فكره ينبذ التقليد الاعمى ويعتنق الحق ، ومن أتاه الله من الملك ما أتاه ، أفيمتنع أن يؤتيه من تنور الفكر وحرية الضمير ، ونفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم ، وقد عرفت أن متبوعه أرسطو كان موحدا · وهو معروف في التاريخ لا ستر فيه ، على انه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك في الاصول التي هي المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالا (٥)

ونحن لا ننكر على المسعودي والقاسمي أن اعتقادهم هذا كان شائعا ، ومعتقدا به ، حتى ان ابن كثير لما نوه عن رأيه في هذا الموضوع ، وانه يخالف رأي القائلين ان ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني أردف قائلا (·· انما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس من يعتقد أنهما واحد ، وان المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطو وزيره ، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير ، فان الاول كان عبد مؤمن صالح وملك عادل وكان وزيره الخضر ، وأما الثاني فكان مشركا وكان وزيره فيلسوفا ، وقد كان بين زمانيهما أكثر من ألفي سنة) (٦) ·

وانني أعتقد أن هذا سبب الخلط بين الشخصيتين التشابه الذي يغلف أعمالهم وخاصة الفتوحات والاعمال العسكرية ولكن لا نعدم الاختلاف بينهما · ودليل المسعودي الذي أوردته سالفا ضعيف واهن بل هو خبر اسرائيلي كعادة المسعودي في نقل أخباره · وكذلك بالنسبة للقاسمي فانه حاول أن يثبت رأيه بالتطرق الى أرسطو وفيثاغورس وفلسفتها في النفس والالهة والروح وهي محاولة فاشلة ينقصها التدقيق والفحص والتثبت ·

وشيء آخر فان التاريخ يعرف ملكا اسمه الاسكندر ذو القرنين ، ومن المقطوع به انه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن (٧) ·

كذلك يرى الدنيوري انه الاسكندر المقدوني بل ويزيد انه نشر الايمان في مجتمع اثينا الوثني (٨) وهذه مغالطة واضحة لا داعي للرد عليها ·

أما أوجه الشبه بينهما والتي دعت بعض المؤرخين والمفسرين الى الاعتقاد أنهما شخصية واحدة ، فهي قيام كل منهما برحلات وفتوحات · بل أن الاسكندر المقدوني ـ وهذا ثابت تاريخيا ـ وصل سيوه والى عاصمة الأخمنيين ـ برسيبلوس ـ وكذلك قيام كل منهما بتشييد المدن ، ونحن لا ننكر أن الاسكندر المقدوني كان في بعض تصرفاته سمحا كريما طيبا ، يحب الخير لبلاده ووحدة المدن اليونانية ضد الخطر الفارسي ، نلمس طيبة أخلاقه من خطاب له في الجيش عندما أحس بثورة داخلية وعصيان يسري بين أفراد الجند حيث قال (·· لكم جميعا ما ربحت ، لكم سورية ومصر والعراق أيها الاصحاب أنتم المرازبة أيها القواد ، ماذا تركت لنفسي ـ لقد حرمت نفسي النوم لأدعكم تنامون ، أروني جراحكم لأريكم جراحي ، من شاء منكم الانصراف فلينصرف ، اذهبوا جميعا) (٩) ·

وهذه الطيبة ليست ديدنا له ، فما أكثر تصرفاته التي يبدو فيها ذا خنزوانة (١٠) ، من ذلك انه دمر عاصمة العدو ، برسيبوليس بلا سبب ، كذلك قتله لوالد أحد القواد لأن القائد عاص ـ مع براءة هذا الأب ومع كونه صديقا له ، لقد كان الاسكندر المقدوني يتصرف بأية وسيلة ليصل الى غايته ، ولم يكن يردعه أخلاق أو وازع من ضمير من تلك المبادىء التي تعلمها من أستاذه أرسطو ، بل قيل انه لم يكن يحب الفلسفة أو التحدث الى الفلاسفة الا عند تعاطي الخمرة . أما دعوى انه مؤمن وموحد فهذه باطلة أساسا ، لأن كل تصرفات الاسكندر تخالف مبدأ الايمان ، بل المشهور عنه ادعاءه أن أصله الهي ـ وادعى كذلك انه سليل هركول وأشيل كما عد نفسه ابنا لديونيزوس وأمون ، كما طلب من الجميع السجود له ، وأجبر كهنة أمون أن يعلنوا أمام الملأ انه ابن الرب (١١) .

ويبدو ان هذه التصرفات التي كانت بمثابة الدعاية له ، والوسيلة لتحقيق أغراضه الشخصية وطموحه ونزواته كانت وراء اعتقاد بعض المؤرخين والمفسرين ان ذا القرنين الوارد اسمه في القرآن هو الاسكندر المقدوني .

اذن لا مجال اطلاقا الى الاعتقاد بأن شخصية ذي القرنين تطابق الاسكندر .

ولعل ما كتبه وهب بن المنبه اليماني من أن ذا القرنين هو الملك المصعب بن الحارث هو ما استأنس اليه لأسباب منها :

١ ـ تطابق الاسم ، وخاصة ان استعمال (ذو) في لغة عرب الجنوب شائعة .

٢ ـ لم يتوفر لدينا تاريخ مفصل يحكي حياة الملك المصعب بن الحارث يخالف ما ورد في القرآن .

وسيبقى هذا الرأي هو أقرب الى الحقيقة حتى يثبت عن المصعب ما يخالف الخبر القرآني . وهذا ما ارتآه معروف الدواليبي (١٢) .

ولعل سائل يسأل لماذا التردد والحذر في الجزم بشيء من هذا القبيل ، وأبادر فأقول أن الخبر القرآني هو الأصدق دائما لأنه منزه عن كل خطأ ولن أجزم بشيء

حتى أتيقن كثيرا · ومحاولتي هذه لا تعدو أن تكون جمع معلومات وتبويبها وتصنيفها من كتب مختلفة ومتفرقة لتكون جاهزة لكل باحث في هذا الموضوع الطويل سلمه ، العميق منبعه ، الصعب مرتقاه ، والله من وراء القصد ·

زمان ذو القرنين :

وكما اختلف المؤرخون والمفسرون في اسم ذي القرنين اختلفوا كثيرا في زمنه· لأن الآيات القرآنية لم تحدد زمانه ، ودعونا نستعرض أزمنة بعض الشخصيات التي اعتقد القوم انها ذي القرنين ، فمنهم من جزم انه الاسكندر المقدوني الذي توفي سنة ٣٢٣ ق·م ، وعمره لا يتجاوز ٣٣ سنة · ومنهم من رأى أنه الملك كورش الذي توفي سنة ٥٢٨ ق·م ، ومن اعتبره دارا الكبير الذي توفي سنة ٤٨٦ ق·م ·

كذلك روي عن علي كرم الله وجهه ، أن ذا القرنين من أهل القرن الاول من ولد يافث بن نوح ، وعن الحسن ابنه ـ انه كان بعد ثمود وكان عمره ١٦٠٠ سنة اما عن وهب فقد روي عنه انه كان في الفترة بين عيسى ومحمد (ص) (١٣) ·

وقيل انه كان بعد داود عليه السلام ب ٧٤ سنة ، وكانت الفترة التي بينه وبين ابيه آدم عليه السلام ٥١٨١ سنة (١٤) وقيل انه احد ملوك بابل (١٥) ·

والملاحظ على هذه الاقوال في تحديد زمان ذي القرنين ، انما يحاول أن يوفق بين تحديد الزمان وبين الاسم الذي يأخذ به ·

كما انتقل الخلاف ايضا الى معرفة عمره الزمني ونستطيع أن نصنف الآراء التي قيلت في هذا الشأن الى قسمين :

١ ـ بعضهم أخذتهم عظم فتوحاته وبعد المسافة ، وصعوبة الترحال والمشقة ، وان ذلك لا يتيسر الا لمن أعطي عمرا طويلا ·

٢ ـ وبعضهم رأى أن الله سبحانه وتعالى يسر له الزمان ، كما يسر له من كل شيء سببا ، فيقولون بعمر أقل من الاول ·

فقد روي عن الحسن انه قال ان عمره ١٦٠٠ سنة (١٦) ٠ كما ذكر بعض أهل الكتاب انه مكث الفا وستمائة سنة يجوب الارض ، ويدعو أهلها الى عبادة الله وحده لا شريك له (١٧) ٠ وقيل ان عمره ثلاث آلاف سنة وهذا أمر غريب (١٨) وقيل انه عاش ٣٦ سنة ، وقيل ٣٢ سنة (١٩) ٠

أما محمد عزة دروزه فيرى ان الآيات القرآنية الواردة بشأن ذي القرنين قد توحي أن زمانه في عصر النبي (ص) (٢٠) ٠

سبب تسميته بذي القرنين :

وكانوا ينحون في تعليلاتهم عن سبب تسميته بذي القرنين عدة مناحي منها : الاشتقاق اللغوي ، الاستشهاد القصصي ، الدافع الديني ، وأخيرا التصرف الذاتي ٠

ولقد أورد الامام ابو الفرج ابن الجوزي عدة أقوال في سبب تسميته بذي القرنين نلخصها فيما يأتي (٢١) :

١ ـ انه دعا قومه الى الله فضربوه على قرنه فهلك ، ثم بعثه الله فدعاهم مرة اخرى فضربوه على قرنه الاخر فهلك ٠

٢ ـ لأنه كان له ذؤابتين من ذهب ٠

٣ ـ لأنه سافر الى مطلع الشمس ومغربها ٠

٤ ـ لأن صفحتي رأسه من نحاس ٠

٥ ـ لأنه رأى في المنام كأنه امتد من الارض الى السماء وأخذ بقرني الشمس فقص رؤياه على قومه ، فسموه بذي القرنين ٠

٦ ـ لأنه ملك الروم والفرس .

٧ ـ لأنه كان في رأسه شبه القرنين .

٨ ـ لأنه كان له غديرتان من شعر . قال ابن الانباري والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين ، وجميرتين ، وقرنين . قال الشاعر :

فلثمت فاها آخذا بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

٩ ـ لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف .

١٠ ـ لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس وهو حي .

١١ ـ لأنه سلك الظلمة والنور .

١٢ ـ لأنه يلبس تاجا بقرنين .

عبدالله بن ابراهيم العسكر

الهوامش و المصـــادر

(١) ابن كثير : ١٠٩ .

(٢) المسعودي : ٤١٤ .

(٣) تفسير المراغي : ١٣ .

(٤) تفسير القاسمي : ٤١٠٧ ، ٤١٠٨ .

(٥) تفسير القاسمي : ٤١٠٧ ـ ٤١٠٨ .

(٦) ابن كثير : ١٠٦ .

(٧) سيد قطب : ٨ .

(٨) الدنيوري : ٣١ .

(٩) اميل لودفيغ : ٢٠٧ .

(١٠) خزوانه : جنون العظمة .

(١١) انظر بالتفصيل سيرة الاسكندر المقدوني في كتاب اميل لوديفغ .

(١٢) الدواليبي : ٢٤ .

(١٣) ابو حيان : ١٥٨ ، انظر ايضا ابن الجوزي : ١٨٤ .

(١٤) ابن كثير : ١٠٩ .

(١٥) ابو الريحان البيروني : ١٥ ، انظر ايضا المسعودي : ٣١٩ .

(١٦) ابو حيان : ١٥٨ .

(١٧) ابن كثير : ١٠٧ .

(١٨) ابن كثير : ١٠٩ .

(١٩) ابن كثير : ١٠٩ .

(٢٠) محمد عزة دروزه : ٤٢ .

(٢١) ابن الجوزي : ١٨٤ . لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع انظر المسعودي : ٣١٩ . ابن كثير : ١٠٣ . القرطبي : ٤٧ ، الفخري الرازي : ١٨٤ . الخوازمي : ٤١ .